غارق في بحر افكاري

ساعد طنيبة

جالِس عَلى طاولة العِشاء رُفْقَة أُمِّي أُحاول إخْبارها بِحَقِيقَة، يُكَوِّن وَقْعَهَا كَبِيرا عَلى جَرَحَها الدامِي، لَمْ أستطع اَلتَّكَلُّم ها أنا أُفَكِّر بَيِّن ماضِيِيَ يُؤَرِّقنِي وَحاضِر يَقْهَرنِي إلى مَتَى يَسْتَمِرّ هَذَا الكابُوس الَّذِي يُراودنِي، أُرِيد أنَّ أُخْرَجَ ما فِي جَعْبَتِي هذا مَرَضٌ بِدُون دَوَاء يا أُمِّي...

قالَت لِيَ أُمِّي أخْرِجْ مَا فِي جَعْبَتك ما بِكَ تُعانِي مِن الأرَقّ؟ وَبِعَدَم اَلرَّغْبَة فِي الأكْل، لا تُرِيد أكل طَعامكَ.

كَيْفَ أخْبَرَهَا! الآنَ فِي ظُلْمَة اَللَّيْل بَعْدَ أنَّ اشتدت كُرْبَتِي وَحانَ مَوْعِد فِراقِي عَنها، الفَجْرُ قَرِيب، رَأيتُ الكرب تَحْتَد وَتَحْتَدّ لأعْلَم أنَّ الفَرَج قَرِيب (كَمَّ كُنتُ غَبِيّا)، قُلتُ لَها حانَ مَوْعِد رَحِيلِي نَحْوَ غايتِي صَبُّر جَمِيل يا أُمِّي، بَعْدَ طُول اِنْتِظار وَفَرَّجَ الله قَرِيب.

قالَت أُمِّي: ماذا تقتصد بِكَلِماتكِ المشفرة كَعادتكَ شابَ مُتَسَرِّع طائِش يَرْكُض وَراء اَلدُّنْيَا بِعَباءَة أعْلَمَ وَأنْتَ تَجْهَل كُلْ شَيْء، لا يا وَلَدَيْ تَرَيَّثَ لا تَسْتَعْجِل لَن ترتاح مادامَت لم تُغادِر فَكَرَّك ثَلاثَة أشْياء رُكُوب قارَبَ مِن حَطَب وَوَسْوَسَة، وَرَفِيق سُوء، وَهَدّا لِنَقُصّ تُعَلّقكِ بِدَيْنكِ.

أُمِّي: هذا عالم آخَر لا أعْرَف حَقِيقتهُ، عَمِلَ، مالَ، حُقُوق، زَواج، طَبِيعَة، جَمِيلَة،.....يا حَبِيبَتِي سَوْفَ أُجازِف، لا أسْتَطِيع اَلتَّحَمُّل سَوْفَ أقُول أخَّرَ كَلِماتِي لأنَّ جَمْرَة فِي قَلْبِي تَتَكَلَّم؛ ظُلمتْ مَوْهِبَتَيْ وَضاعَت حَيَاتِي بَيِّن عُكَّازَتي انتظاري لِوَظِيفَة مِن سابِع المُسْتَحِيلات لِمَن أشْتَكِي حالِيّ....

تَمايَلتَ وَضَعتِ يَدها على رَأسَها تُحَرِّكهُ يَمِينا وَيَسَارًا قائِلَة يا رَبِّي ماذا تُريد أنَّ تَفْعَل؟

نَطَقَتْ عَيَّناها قَبْلَ كَلِماتهُ لِيَحْتَرِق فُؤادها بوَقْع كَلِمَة "هِجْرَة" أنْتَ تَحْتاج لِتَعْزِيَة، تَبَسَّمتُ وَقُلْتُ بَل إلَى ولِيمَة ؛ فِي تِلْكَ اَللَّحْظَة عَلَمتُ أنِّي مُتَحَجِّر بأفْكارِي الفَوْضَوِيَّة، أنْتَ حَقّا ظَالٌ لِطَرِيقِك وَتَحْتاج لِراقِيَة، لَطالَمَا نَصَحتُكَ لَكِنَّ لَمْ تُبالِي قُلتُ لكَ لا تُصاحِب الأحْمَق، وَقَلِيل الهِمَّة، وَقَلِيل المُرُوءَة، لأنَّهُم سَوْفَ يُسَمِّعُونَكَ اَلْكَذِب وَالنَّمِيمَة وَشَهادَة زَوَّر لِتَصْدِمنِي بِطابِعكَ الجِدِّيَّة تُحَاوِل أنَّ تَمْتَطِي قَوارِب المَوْت لِتُجارِي الأيّام اَلصَّعْبَة، تُرِيد مُفارَقتِي لِتَتَجَمَّد رُوحِيّ بِذَهابكَ.

قُلتُ لَها أصْدِقائِي هَمّ سَعادتِي يا أُمِّي ألا تُعْلَمِينَ أنِّي سَوْفَ أذْهَبَ صَباحاً رُفْقَة صَدِيقِي ماهِر لِحِلْم طالَ اِنْتِظارِه منذ خَمْسَة وَعِشْرِينَ سَنَة، اِنْتَظَرَتْهُ حَتَّى فَقَدتُ بَصِيرتِي ها هِيَ دَقائِق عُمْرِيّ تَنْقَضِي بِصُحْبَتكِ الأخِيرَة رُبَّما لَن

أُعَوِّد مِن جَدِيد يا رُوحِيّ مِن أجِلّ سَعادتِي.

تَكَلَّمتِ أُمِّي يا لَهُ مِن سُمّ قاتِلٍ لِماذا أخْبَرتَنِي؟ لَو كُنتِ أعْلَمَ لمّا سَمَّعَت كَلِماتكَ لِتَلُومنِي بِنَبْرَة خشنة وَعَيِّنْهَا باكِيَة، مُعَاتِبتا يا لَكَ مِن وَلَد مُتَهَوِّر أَلَمَّ تُسْمِع كَلاَمِي مُنْذُ أنَّ تُوفِي وَألدَّك، وَأنا أقُول لَك لا تُصاحِب ماهِر الحَسُود، صاحِب العَيْن، غاضِب الوالِدَيْن، كادَ يَجْن جُنُونها لِتَتَهَكَّم عَلَيَّ بِسَيْل وَابِل مِن الكَلِمات أَلَمَّ أقُلّ لَك حافِظ عَلى صَلاتكَ أيّها الشَّقِيّ آه آه مِنكِ يا غَبيّ أمْرَضَتْ جِسْمِي بِكَثْرَة كَلامكِ وَنَوْمكَ وَأكْلَكَ، لتهَدَّمَ بَدَنِي بِهَمَّك وَحُزْنِي عَلَيكَ، وَالسَّهَر بِانْتِظَارك مُتَأخِّرا فِي الفَجْر، لأجُوع مِن كَثْرَة تَفْكِيرِي....، كَسَّرْت خَاطِرِي يا نور عَيْنِي هذا طَرِيق مَسْدُود.

أنا هكذا يا أُمِّي بِطِباعِيّ اَلتَّرْجِسِيَّة نُسْخَة طَبَّقَ اَلأصْل عَنَّ والدي، عِشْقِيّ لِلهِجْرَة لا نَظِير لَهُ ولا يُوجِد تِرْياق لَهُ فِي عالِمِي، أنا المخطئ لكِنْ أنا هُنَّا حَيّ مَيِّت أُنْتَظَر فُرْصتِي قَرِرتَ اِخْتِيَار طَرِيقِي مِن أجِلّ ضَمان حَيَاتِي، وَإذاً بِطَقْطَقَة تَهُزّ بَاب مَنْزِلِيْ قائِلاً هَيّا يا هاني لَقَدّ حانَ وَقْت اَلرَّحِيل لَقَدّ تَأخُّرنا، فِي تِلْكَ اَللَّحْظَة إزْداد غَضَبَ غَالِيَتَيْ...

قالَت: أيْن تَصْحِي مِن غَفْلَتك رياح العَزِيمَة تَحَمُّلكَ لِلطَّرِيق الخَطَأ؛ قُمْ مِن سُباتكَ أنْتَ تَحْرُق أعْصابِي، ألا تَعْلَم كَيْفَ تَحْفَظ ماء وَجْهكَ وَبَهْجَتَه بِالتَّقْوَى

وَالوَفاء وَالكَرْم وَالمُرُوءَة، أنْظُر لوَجَّهَكَ المسود جَرّاء المَعاصِي المُرْتَكِبَة وَبِعَدِّك عَنَّ حَبْل الله.

قُلتُ لَها: لا يُوجِد هُناكَ أمَلَّ لَن أتَراجَع، سَأبْحَث عَنَّ الرِّزْق فِي تِلْكَ الظفة الجَمِيلَة.

دَمَعتْ عَيَّناها لِتَتَكَلَّم نَشْوَة الحَبّ وَالمُرُوءَة وَالشَّهَامَة، أنَّ تَسْعَى وَراء العَمَل لا يُكَوِّن فِي غُرْبَة الأوْطان، قُمْ اللَّيْل وَأكْثُر بالاستغفار بِالأسْحار، وَأذْكَر أوَّل النَّهَار وَآخِره، وَتُعاهِد الصَّدَقَة، لا الكَسَل وَالخِيانَة وَقِلَّة الصَّلاة وَالنَّوْم بِالصُّبْح. لِلأسَف عِنْدَما كُنتَ صَغِيرا لَطالَمَا رَبَّيْتُكَ أحْسَن التَّرْبِيَة؛ لَكِنْ لا أعْلَمَ مُنْذُ مَتَى غَرَستَ هذه الأفكار الجَهَنَّمِيَّة القاتِلَة فِي رَأسَكَ، فِي طُفُولتكَ أرْمِيكَ فِي الهَواء تُضْحكَ، لأنَّكَ عَلى ثِقَة بِأنِّي لَن أتْرُك، اليَوْم سَوْفَ تَرْمِيكَ الأقْدار عَنِّي وَلَكِن ثِقتِي بِأنَّ لِيَ رَبًا لَن يَتْرُكنا أبَدا تَكفِينِي، تَزْأر فِي وَجْهَيْ قائِلَة هَيّا أُغَرِّب عَنَّ وَجْهَيْ لا أُرِيد رُؤْيتكِ مِن جَدِيد...، تَتَرَكِّنِي بَعْدَما طَعَنتُ فِي السِنّ وَقِلَّة حيلتي وَقُوَّتي وَنَقَصَ نُضَرِّي، صَبْرِي طَوِيل وَقَلْبِي لا يَحْتَمِل فَراقَكَ...

يا أُمِّي أبَّكِ عَلى صَغَرِي الَّذِي ضاعَ لِيَنْزف قَلْبَيْيَ دَمًّا عَلى فَقْرِيّ بَحْثاً عَنَّ الفَرَج الَّذِي طالَما حَلُمتُ بِهِ، يا أُمِّي هذا نِتاج تَفْكِير طَوِيل الأمَد، أستودعك

الله الَّذِي لا تُضَيِّع وَدائِعهُ لَيْلَة سَعِيدَة سَوْفَ أَذْهَبَ الآنَ لأحْمَل حَقائِبِي، أَرَدتُ تقبيل يَدها وَجَبَينَها لَكَنَّ امتنعت قائِلَة وَداعاً لا لِلهجْرَة غَيْر الشَرْعِيَّة حِضنِي أُولَي، مُحالٌ أنَّ تَرَى صَدْراً أَحَنَّ عليكَ مِن صَدْرِي.

ذَهَبتُ تاركَا وَرائِي ثِقلَ أُمِّي مَكْسُورَة الخاطر بحثا عَنَّ حَياة أَفْضَلَ، وَقَلْبِي مُتَحَجِّر أسِير بِخُطَى ثابِتَة مشتت حائِر فِي رحاب فُرْصتِي الأخِيرَة رافِضًا كُرْسِيّ الاحتياط فِي وَطَنَيْ، لِتُراودنِي أسْئِلَة كَثِيرَة فِي طَرِيقِي.

هَل أنْتَ مُتَيَقِّن مِن الذَهاب؟

لِماذا تَرَكَت سَنَدكَ؟

ماهِيّ فُرَصُ نَجاح المُهمَّة؟

لِماذا كَسَرْت خاطِرها؟

هِيَ لَيْسَت راضِيَة عَلَيكَ؟

استوقفتني أفْكارِي لِتَتَلاطَم مَعَ مَوَّجَ البَحْر، وَصلَت أخِيرا فِي ظُلْمَة اللَيْل حامِلاً عَلى أكْتافِي ثِقْلاً كَبِيرًا، مُتَرَدِّد حائِر فِي أمْرَيْن اثنين لا ثالِث لَهما، الانصياع لقَرارات غَيْرِيّ فِي حَدِيقَة الخَيال، أمّ تَراجَعَ بِسَبّ اقتناعي بِغَيْمَة أُمِّي المَطَرَة التي لا تعرف الكذب، لِتَتَجَمَّع بَيِّن ثَنايا قَلْبَيْ الحِكايات الماضِيَة

فِي جَرِيدَة صَبَاح أُمِّي تَحْتُ وَقَعَ أَخْبَار الهجرة الغَيْر شَرْعِيَّة، كَأَحْلَى صُورَة واقِعِيَّة فَوْق صَحْراء قَلْبَيْيَ الخاوِيَة مُنْذُ زَمَن، صَعِدَت بِتَرَدُّد عَلَى قارَبَ قَدِيم و صَوَّتُ المُحَرِّك الرَتّان الَّذِي يَخْرِم الأُذُن وَأمام عَدَّدَ كَبِير مِن قارورات المازُوت وَالمِياه، لأَجْلِسَ عَلَى حافَة القارِب اجتمعت أفكارنا عَلَى ضَلالَة و لَهَدَف وَاحَد هُوَ المُغادَرَة بِأيّ ثَمْن، وَبِأيّ وَسِيْلَة نَحْوَ وُجْهَة واحِدَة هِيَ إِيطالِيا لا نُحَمِّل معنا سِوَى أَحْلام وَرْدِيَّة بِالعَيْش الكَرِيم عَلَى الضفة الأُخْرى، عَملٌ وَبَيْت وَسَيَّارة وحياة زهيدة...

سائِق القارِب يَصِيح لقد حانَ وَقْت الرَحِيل، فِي تَلكَّ اللَحْظة أَحْسَستُ بِشُعُور غَرِيب يَنْتابنِي قائِلاً فِي نَفَسِي طَرِيق الهِجْرَة وَعْرَة المَسْلك وَمَلِيئَة بالمنغصات رافَقَتِنِي مُنْذُ وَلادَتي وَطالَت وَأنا الآنَ أَكْتَشِف تَضارِيسها، حاوَلَتِ تَبْرِير الهِجْرَة لأُمِّيّ بِأَسْباب كَثِيرَة وانفعلت كَثِيراً وَلَكِن سَقَط اسْمِيّ، انطلق القارِب حامِلاً مَعَهُ عِشْرِينَ شابا يافِعا يَحمِّل أَحْلام جَوْهَرِيَّة بِمُخْتَلِف طَبَقاتها طَبِيب، أُسْتاذ بَطّال... تَحْت رايَة واحدة بحثا عَنَّ السُّمُوّ بِسَماء الإِنْسانِيَّة، نَظَرتُ حَوْلِيّ، سَواد وَعَتَمَة ابتَعَدَّنَا قَلِيلاً عَنَّ الشاطِئ لأُهجر لِداخِلِيّ فَأَكْتَشَف نَفَسِي مِن جَدِيد، ماذا تَفْعَل عُدّ أَدْراجكَ أَنْتَ جاهِلٌ تَحْفِر قَبْرك بِيَدكِ، لا تَفْعَل بِيَ ما لا تَعلُمهُ، فَكَرَّتْ وَفَكَّرَت لأُنَقِّي نَفَسِي مِن الشَّوَائِب وَمَن العِقْد مُفارِقا أَحْبابِي رافِعاً يَدَيْ مُوَدِّعاً شَواطِئ وَطَنِيّ وَداعاً يا أُمِّي هَل أنا بِعَقْلِي

أمّ مَجْنُون؟ لأكَرِّر الخَطأ ألَفَ مَرَّة ركَنَتْ لِقَائُونِيّ حَيَاتِي لا أستَطِيع العَوْدَة.

لِيَقُول ماهِر: مِنّا مِن يَصِلُ هُناكَ لِيَبْدَأ رِحلَة جَدِيدَة لِلبَحْث عَنَّ وَثائِق وَعَمِلِ، وَمِنّا مِن يَصِلُ لِيُكَوِّن ضَيْفًا ثَقِيلاً فِي مَرْكَز الشُّرْطَة لِيُعاد تَرْحِيلهُ إلى بَلَده بَعْدَ ضَرْب وَسَجَنَ وَرُبَّما يَدْفِن فِي مَقابِرهِم....، وَمِنّا مِن يُكَوِّن وَلِيمَة لأسْماكِ المُحِيط أو غَرِيقا، فِي تِلْكَ اللَّحْظَة استجمعت قِوَايَ لأضَع رِجلي عَلى حَافَّة القارب وَأُلْقِي بِنَفْسِي فِي البَحْر، لقد قَررتُ العَوْدَة رافِضا أنَّ تُنَكَّل جُثَّتي وَتَركِ نَفَسٍ تَتَألَم لأنَّها لا تَسْتَحِقّ دُلَّك العَذاب، لأسَبِّح نَحْوَ الشاطِئ وَالصَّيْحَات تَتَعَالَيْ أيّها المُغَفَّل عُدّ...

لم أكْتَرِث لِكَلِمَاتِهِمْ وَأكْمَلْتُ مَسِيرَتَيْ حَتَّى وَصَلْتُ لِلشاطِئ جَلَسْتُ عَلى الرِّمَال مُنْهكاً،بَعْدَما خارَت قُوَايَ لَمَمتُ شُتَاتَ رُوحِيّ لأسْجُد سَجْدَة شَكَرَ وَذَهَبَتْ مسرعا لِمَنْزِلِيّ وَغَالِيَتَيْ، أقُول ها أنا عائِد يا أُمِّي وَالدَّمْع تَسِيل لِتَرَوِّي التُّرَاب أنْحَنِي لأقْبِل يَدكَ لِتَنْسَكِب دُمُوع ضَعْفِي فَوْق صَدْرِكِ لِيَحَارَ الوَصْف، لقد تَذَكَّرتُ كَلِماتها مَحالّ أنَّ تُرَى صَدْراً أحن مِن صَدْرِي وَأنَّكِ وَطَنِيّ الَّذِي تُرْعَة فِيهِ وَرِضائكَ هُوَ سُرّ تَوْفِيقِي وَبِبَرِّك أوْصانِي رب الكَوْن، فَصِدَّقُ دُعائكِ انفرجت به كُربَّتي وَأحْزانِي،إلَيكَ أعَوِّد لأبْدَأ حَيَاتِي الجَدِيدَة، وَصلَّت أخِير لأبْدَأ عَهدا جَدِيدا رُقْقَة أُمِّي أطْرُق البَاب عَلى عجل لأرْتَاح مِن سَفَرِي الَّذِي لِمَ يَكْتَمِل وَأرْهَقَنِي، لا تُجِيب لأدْفَعهُ بِقُوَّة لأجَدَّها مُلْقَاة عَلى

الأرْض لا تَرُد عَلَيَّ كَلِماتِي وَصِياحِي، وَضَعتُ يَدَيْ لِجَسّ نَبضّها، إنَّهُ يَنْبض بِسُرْعَة، رَفَعَتُ يَدَيْ لِلسَماء يا إلهي لا تَرَحِّلِي، لَستُ أَقْوَى عَلى فَراقَكِ، حَمَّلتها عَلى ظَهْرِي، راكَضا لا أُبالِي أُسارع الزَمَن، ركَضَت وَرَكَضتُ لم أُبالِي لِلقُيُود مُمْضِيا فِي ظَلام اللَيْل مُجاهِد وَمُقاتِل وَمُناضِلا لأنْقاض رَوَّحَها النَقِيَّة، وَصلَّت لِلمُسْتَشْفي لِيَقْدَم لَها الطَبِيب عِلاجا انتظرتها لِساعات وَأنا جالِس عَلى الأرْض أضَع يَدايَ عَلِيّ رَأسِي معاتبا أَلْهَتنِي الدُنْيا، فَهيَ ظِلّ زائِل رَكِنتُ لَها كَالجاهِل هاوياً لَها، حَذَّرتَنِي وَلَكِن كُنتِ شاغَلَ وَمُحِبّا لِلمال، لأصِيح بِأعْلَى صَوَّت باكِياً، قُمت وَضَعت رَأسِي عَلى صَدَّرَها دمعتي مُنْهَمِرَة لأشْعُر بِحَنانها، لأناجِي رَبا جَلِيلاً راجِياً قُبُول دُعائِي بِقَلْب ذَلِيل، الحَمْد لله عَلى كُلْ شَيْء لا تُرَحِّلِي عَنِّي أُريد الأمان بِقُرْبكِ، أعْلَمَ أنِّي ظلوم جَهُول وَلَكِنَّك حَلِيم غَفُور الذُنُوب، فَخَزائِن جودك لا تَنْقَطِع، ها أنا أُقْبِل مِن جَدِيد راجِياً مِنكِ القُبُول، عَصِيَّتك وَأنْتَ تُستَّرنِي، فَأشْفها لِيَتَحَرَّك يَدها عَلى رَأسِي لأشْعَر بِدَفِيء رَوَّحَها تَلامَسُ نَبَضَ قَلْبَي، قائِلَة لقد تَحَقَّقتَ دَعْوَتَيْ فِي صِلاتِي أيّها العَنِيد، سامحيني يا أُمِّي، تَبَسَّمتُ وَهِيَ تبكّي لا تُقَنِّط مِن رَحْمَة الله سُبْحانهُ وَتَعالِي، امسح دُمُوعكِ يا أُمِّي لا تُبكّي فَأنَت قِرَّة عَيْنِي لَن أُنْسَى نَصائِحكَ..... أجلّ أنا هُنَّا فِي أهْلِي وَوَطَنِيّ أُمِّي لا تَأسَيْ وَلا تُهنِّي سَوْفَ أفْدِيكَ حَتَّى المَشِيب بِرُوحِي.